

دور علماء المالكية في المدينة المنورة: البدر عبد الله بن فرحون أنموذجا (ت769هـ/1364م)

The Maliki Scholars' Role in Medina: Albadr Abdulla Bin Farhoun as an Example
(769H /1364 AD)

زينب رزيوي*، جامعة د مولاي الطاهر سعيدة، الايميل: zineb.rezzioui@univ-saida.dz

تاريخ النشر: 31 / 12 / 2022

تاريخ القبول: 29 / 09 / 2022

تاريخ الاستلام: 01 / 09 / 2022

ملخص:

تتناول هذه الدراسة شخصية علمية بارزة سجلت اسمها من ذهب بالمدينة المنورة خلال القرن (8هـ/14م)، من بيت رئاسة وقضاء وعلم، وهو: أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون (ت769هـ/1364م)، من كبار الأئمة الأعلام، عالما بالفقه والتفسير والحديث، بارعا في العربية، كثير التأليف وفي غاية الجودة والالتقان، أعماله بالمدينة تدل على علو مكانته ومنزلته، حيث انتهت إليه الرئاسة هناك، فكان مدرسا بالمدرسة الشهابية للطائفة المالكية فحدّث ودرّس وأفاد، وقاضيا لأكثر من 24 سنة، وخادما للحرم النبوي لأزيد من 50 سنة، كما كان له الفضل في محاربة الشيعة الإمامية ونشر المذهب المالكي والانتصار له، فأحيى وجوده بالمدينة بعد خموله، فهو شخصية جديرة بالدراسة والبحث.

الكلمات المفتاحية: ابن فرحون، المدينة المنورة، المذهب المالكي، المدرسة الشهابية، القضاء.

Abstract:

The current paper dwells about a prominent scientific figure, whose name was carved in gold in Medina during the 8H century (14AD), being a symbol of education, judicial knowledge and leadership: Abu Muhammad Abdulla bin Muhammad Farhoun who died in 769 H (1364 AD). He was a prominent imam with undeniable knowledge of Fiqh, interpretation and hadith. He mastered the Arabic language and had written a variety of meticulous productions. As a matter of fact, his achievements in Medina were a testimony of his highly regarded position as he ended up being a leader there. He started as a teacher in the Shehabiya school where he taught and preached the Maliki sect. He later on took up the role of a judge for over 24 years and was a servant of the Prophet's mosque for more than 50 years. He was also credited for fighting the Imami Shiites and reviving the Maliki doctrine in Medina after its decay. He is indeed a figure worthy of study and research.

Key words: Ibn Farhoun, Medina, the Maliki doctrine, the Shihabi school, the judiciary system.

. مقدمة:

عرفت المدينة المنورة خلال القرن (8هـ/14م) حركة علمية نشيطة، باعتبارها مركز تجمع للمسلمين بعد مكة المكرمة، فشدت إليها الرجال من مختلف أنحاء المعمورة وبالخصوص القادمين من بلاد المغرب الاسلامي، إما للمجاورة فيها مدة من الزمن وأداء فريضة الحج، أو للإقامة الدائمة فيها، أو لتلقي العلم بها سواء طلبة أو علماء، فاستطاعوا أن يبديوا بفكرهم وعلمهم واسهامهم، فكان دورهم كبير في بناء وتنشيط الحياة العلمية والعملية بها، ولعل أبرزهم أسرة ابن فرحون "بيت رئاسة وقضاء وعلم" كما وصفها كتب التراجم، أثرت الاستقرار بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وخدمة العلم فيها والاشتغال بالعبادة في جوهرها الروحي الطيب، تميزت بكثرة علمائها، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: البدر عبد الله بن فرحون (ت769هـ/1364م)، وهو موضوع الدراسة الموسوم بعنوان: "البدر عبد الله بن فرحون واسهاماته بالمدينة المنورة (693-769هـ/1294-1364م)".

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يحاول ابراز حجم حضور علماء مالكية المغرب الاسلامي في المدينة المنورة في مجال العلوم والمهن وأبرزهم البدر، ولعل أسباب اختياري لهذه الشخصية راجع إلى قلة الدراسات التاريخية حوله، فبالرغم من كونه من كبار علماء أسرة آل فرحون، وقطب من أقطاب المدينة المنورة الذين أحدثوا التغيير خلال القرن (8هـ/14م)، فكان مؤرخها وقاضيا ومحدثها ومدرسها، كما كان له اسهام كبير في تنشئة وتربية وتعليم ابن أخيه برهان الدين بن فرحون صاحب الديباج - الذي سالت الأعلام حوله -، إلا أن البدر بن فرحون لم ينل حقه من الدراسات العلمية، فلا توجد حوله دراسة كافية ووافية ومستقلة، فما كتب عنه القليل جدا متناثر في كتب التراجم يكاد يتشابه - نقلا عن الديباج-، كما أورد له محقق كتاب نصيحة المشاور ترجمة مختصرة جدا لا تفي بالغرض، كما هو الحال للباحثة بدرية بنت عبد العزيز البصيري التي ترجمت له في مقال ضمن دراستها لكتاب نصيحة المشاور مخصصة لدراسة الجانب الاقتصادي للمدينة المنورة.

فمن هذا المنطلق جاء اختياري لهذا الموضوع ولعل الاشكال الذي نطرحه في هذا السياق: ما هو حجم الاسهام العلمي والعملية للبدر عبد الله بن فرحون في المدينة المنورة؟، أو بعبارة أخرى فيما تجلى الدور الذي قدمه البدر عبد الله بن فرحون في مجتمع المدينة المنورة خلال القرن (8هـ/14م)؟.

وتندرج تحت هذه الاشكالية أسئلة فرعية أهمها: ما هو نسب وأصل البدر بن فرحون؟، كيف كانت تنشئته العلمية؟، من هم أبرز شيوخه وتلامذته؟، ما هي أهم الوظائف التي تقلدها؟ ما هي أبرز مصنفاته؟ ...، وللإجابة عليها اتبعت المنهج التاريخي، وقسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين تندرج تحتهما مطالب فرعية، فالمبحث الأول تحت عنوان: سيرة البدر بن فرحون، تناولت فيه مولده ونسبه، وحياته العلمية ومكانته ووفاته، أما المبحث الثاني موسوم بعنوان: اسهاماته في المدينة المنورة، تحدثت فيه عن دوره في التدريس ونشر المذهب المالكي، وتولييه منصب القضاء وأخيرا مصنفاته، وخاتمه تضمنت أهم الاستنتاجات مع ذكر أبرز التوصيات.

إنّ الهدف الذي أصبوا إليه من خلال دراستي هذه هو محاولة وضع ترجمة مستقلة مستفيضة حول البدر بن فرحون في ظل ما جمعت من مادة علمية، كانت متناثرة في كتب التراجم وفي بعض الدراسات التاريخية والتي غالبا ما كانت حول القاضي برهان الدين بن فرحون صاحب الديباج، محاولة مني اضافة ما اعتقدت أنه جديد في هذا المجال، ومساهمة مني في التعريف بهذه الشخصية العملية ذات المنزلية العلمية والمكانة الراقية.

2. السيرة الذاتية للبدر بن فرحون:

أنجبت أسرة ابن فرحون كوكبة من العلماء، سجلت حضورها بأقلام من ذهب، مشاركة في الحياة العلمية والعملية بمجتمع المدينة المنورة، ولعل أبرزهم البدر أبو محمد عبد الله بن فرحون، وسيسعى هذا المبحث للتعريف به وبأصله، ويوضحه نشأته العلمية ويبرز أهم شيوخه وتلامذته.

2.1 مولده ونسبه:

هو عبد الله بن محمد بن أبي القاسم فرحون بن محمد بن فرحون وكنيته أبو محمد (ابن فرحون، دت صفحة 454)، ويسمى "البدر" (السخاوي، 1979 صفحة 403)، ولد بالمدينة المنورة يوم الثلاثاء السادس من جمادى الآخرة من عام ثلاث وتسعين وستمائة (693هـ/1293م)، وهو بكر أبيه، وعن ذلك يقول البدر عن نفسه: «تزوج والدتي رحمها الله، وكان بناؤه بها ليلة الاثنين الثالث عشر من شهر صفر عام اثنين وتسعين وستمائة فولدت له خمس ذكور، توفي منهم في حياته اثنين، وكنت أول أولاده، وكان مولدي يوم الثلاثاء السادس من جمادى الآخرة عام ثلاثة وتسعين وستمائة» (البدر، دت صفحة 246).

ينحدر من أسرة علمية نشأت بالأندلس في قرية تسمى جَيَان (مدينة أندلسية كثيرة الخصب، بها مسجد وجامع، عرفت بعلمائها، وبتربية دود الحرير وكثرة ينابيعها. ينظر عنهما: (الحميري، 1984 صفحة 183)، وهو موطنها الأصلي ثم انتقلت للعيش بتونس، قبل أن تستوطن المدينة المنورة وتستقر بها في النصف الثاني من القرن (7هـ/13م) (ابن فرحون، 1423هـ صفحة 26)، حسبما وضحه صاحب الديباج في قوله: «اليعمري التونسي الأصل المدني المولد والمنشأ» (ابن فرحون، دت صفحة 454)، أو كما وضحه مترجمنا البدر عن نسب والده حيث قال: «اليعمري الأبي المحتد، ثم الجَيَانِي، التونسي المولد والمنشأ»، فاليعمري نسبة إلى يعمر بن مالك بن بهثة بن حرب بن وهب بن جلى بن أحمس بن ضبيعة بن نزار بن معد بن عدنان، والأبي إلى بلدة الأندلس من كورة جَيَان (البدر، دت صفحة 243)، أما التونسي الأصل فيؤكددها ابن بطوطة في رحلته في قوله: «... وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب وأصالة» (بطوطة، 1987 صفحة 135).

هاجر مؤسس الأسرة وهو والد البدر وهو: أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل بن فرحون (722هـ/1321م) (ولد في تونس ونشأ بها واشتغل بالعلم على شيوخ بلده، برع في الفقه والأصول والعربية وبرع في علم الميقات، استوطن المدينة المنورة قبل سنة (692هـ/1292م)، وتزوج بها، فرزق خمسة ذكور، شارك مشاركة فعالة في الحركة العلمية في المدينة فدرس بالمسجد النبوي والمدرسة الشهابية، وكان له أثر كبير في نشر المذهب المالكي، توفي سنة (722هـ/1321م). ينظر ترجمته: (البدر، دت صفحة 243)، (نواب، 1996 الصفحات 287-288)

هاجر والد البدر من تونس إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وجاور بالمدينة وتزوج هناك سنة (692هـ/1292م) من بنت الشريف عبد الواحد الحسيني ذات النسب الشريف الحسيني، وعن ذلك يقول مترجمنا عن نفسه: «وكان زواجه لوالدتي من برّه بنا إذ ألحقنا بنسب النبي صلى الله عليه وسلم وجعلنا من ذريته اجماعاً وشرفاً عن أكثر العلماء، وبذلك أفتى ناصر الدين المشذالي وغيره ممن هو مثله في العلم» (البدر، دت الصفحات 244-245)، فهو "كريم الجدود" (السخاوي، 1979 صفحة 404).

2.2 حياته العلمية:

نشأ البدر عبد الله بالمدينة المنورة في بيئة متشعبة بالعلم بدءاً بالبيت الذي ترعرع فيه، والذي كان معروفاً بالعلم والفضل، إلى جانب العصر الذي عايشه وهو القرن (8هـ/14م)، الذي ميزته نهضة علمية فائقة، حيث كانت المدينة مزاراً

طلاب العلم ورواده من كل فج عميق، ففي ذلك افتتح مشواره الدراسي في الطلب والتأليف والإفادة خصوصا وأنه طلب العلم بين علماء فضلاء سواء المقيمين بالمدينة أو الوافدين إليها خاصة في موسم الحج، فأخذ عن أبرز الفقهاء في تلك الفترة وأولهم والده الذي تربى على خطاه، فكان أول شيوخه، درس على يديه الفقه والعربية والحديث، وكان محل فخره، واعتبره البدر عبد الله ذلك من كمال بروه بهم، في قوله: «وكمّل بره (أي والده) بأن علّمنا فأحسن تعليمنا كما ترى، وأدبنا فأحسن تأديتنا» (البدر، دت صفحة 246).

كما درس على أيدي شيوخ بارزين فقرأ القرآن الكريم على يد الشيخ أبي عبد الله القصري المقرئ (عالم وفقه وزاهد عالم بالقراءات صاحب الكرامات بارع في العربية وأصول الفقه وأصول الدين، من أهل تونس، جاور بالمدينة المنورة ثلاث مرات (709-712-718هـ) توفي بالقدس سنة (723هـ/1323م). ينظر ترجمته: (البدر، دت صفحة 77)، (الغبريني، 1979 الصفحات 186-187)).

ودرسه كذلك الشيخ محمد بن حريث البلنسي، والسيتي خطيب سبته وفقهه، بالإضافة إلى: الشيخ عز الدين يوسف الزرندي، والشيخ جمال الدين محمد بن أحمد المقرئ، والشيخ شرف الدين الزبير الأسواني، والشيخ سراج الدين الدمهوري، والشيخ أبي عبد الله محمد بن جابر الواد آشي، والشيخ قطب الدين بن مكرم المصري، والشيخ زين الدين الطبري. (لأكثر تفاصيل عن شيوخه ينظر: (البدر، دت صفحة 77): (ابن فرحون، دت صفحة 455): (السخاوي، 1979 الصفحات 404-405): (مخلوف، 2003 صفحة 291).

أما تلامذته فقد أخذ عليه العلم جمهرة من العلماء، وعن ذلك يقول صاحب الديباج: «تخرج عنه جماعة من الفضلاء» (ابن فرحون، دت صفحة 455)، ولعل أبرزهم وأشهرهم: برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم، ولد بالمدينة واشتغل فيها وتوفي بها سنة (799هـ/1326م)، ولي قضاء المالكية، صاحب التصانيف الكثيرة أهمها: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تبصرة الحكام، ارشاد السالك... (ينظر ترجمته: (أعراب، 2000 صفحة 41): (مرتاجي، دت صفحة 9): (خليفة، 2010 صفحة 39): (بوشهاب، 2004 الصفحات 7-17))، وهو ابن أخيه الذي رباه بعد وفاة والده، فكان له نعم الأب ونعم المربي، أشرف على دراسته، وحمله على المضي قدما في طريق العلماء، فاقتدى به وتدرّب على يديه، وتأثر بأسلوبه وأخلاقه (أعراب، 2000 صفحة 45).

ونستشف من ترجمته لعمه أنه كان شديد الإعجاب بشخصيته، يقدر جده في العبادة، وسعيه لسمع الناس، وحرصه على طلب العلم، فكان ذلك بادرة التأثير واللاقته بسلوكه وأخلاقه (برهان الدين ابن فرحون، 1423هـ صفحة 20 صفحة 29).

3.2 مكانته العلمية ووفاته:

لقد أشاد المترجمون بالمكانة العلمية التي كان يحظى بها البدر بن فرحون منوهين بصفاته الكريمة، ومبرزين أهم جوانب النبوغ في شخصيته، هذه الجوانب التي استطاع بها البدر بن فرحون أن يؤثر في واقع مجتمعه وبيئته، محاولا الإصلاح ونشر الخير بشتى الوسائل والطرق، حيث أوتي من العلم ما استطاع أن ينور الله له طريقه نحو الهدى والصالح، لذا يصنف ضمن الأئمة الأعلام في زمانه، ومن خيرة علماء عصره (أعراب، 2000 الصفحات 68-69)، وصفه صاحب شجرة النور الزكية: «بالإمام العالم العامل المتفنن في العلوم، الشيخ الفاضل القدوة المحدث المفسر الكامل، كان أحد أئمة الإسلام ومصايح الظلام» (مخلوف، 2003 صفحة 291)، ووصفه ابن بطوطة في قوله «مدرس المالكية ونائب الحكم» (بطوطة، 1987 صفحة 135).

وقال عنه السخاوي: «نزّل المدينة وقاضيا، المالكي ومؤرخها» (السخاوي، 1979 صفحة 403)، وقال عنه الفيروز آبادي في كتابه المغانم المطابة: «أول ما رأيته ووقع نظري عليه من أهل العلم بالحرم الشريف وذلك في حوالي الخمسين

والسبعمائة، فشاهدت منه طورا ووقارا، وحشمة ورياسة وأدبا، ناب في الحكم سنين عديدة وعتيدة، إليه يشار في حفظ الأواصر، ويغضب لدين الله ونصره» (آبادي، 1423هـ صفحة 253).

كما تميز بحسن الخلق وإحسانه للفقراء والصدقة عليهم لكثرة ماله وعقاره، كما كان ذا كلمة مسموعة لدى الناس، حسن العشرة بشوشا صبورا على الأذى، وعن ذلك يقول ابن أخيه وتلميذه برهان الدين بن فرحون في كتابه الديباج أنه: «كان من أكابر الأئمة الأعلام، ومصاييح الظلام، عالما بالفقه والتفسير وفقه الحديث ومعانيه...، بارعا في علم العربية» (ابن فرحون، دت الصفحات 454-455).

وقال أيضا: «كان ممن جمع الله تعالى له العلم والعمل، والدنيا والدين، فكان أعظم أهل المدينة بسارا، وأكثرهم عقارا، وأوسعهم جاها، وأنفذهم كلمة، وأعظمهم حرمة، وألينهم عريكة، وأحسنهم بشاشة وبشرا، صبورا على الأذى يجزي بالحسنة السيئة، ويسمع الناس بخلقه، ويواسي الفقراء بمعروفه، ويصل أعداءه ببره، ويحفظ من مات منهم في ذريته»، كما قال عنه: أنه كان «كان كثير التلاوة ليلا ونهارا...، يحيي غالبا الثلث الأخير من الليل بالصلاة والتلاوة من حدائث سنة إلى أن ثقل بمرض الموت...، مواظبا على الصلوات في الصف الأول من الروضة النبوية نحو ستين سنة، وما يفتح باب الحرم في السحر إلا وهو على الباب، وحج نحو خمس وخمسين حجة، ولم يخرج من المدينة إلا إلى مكة المشرفة للحج إلى أن مات بالمدينة» (ابن فرحون، دت صفحة 456).

توفي البدر بن فرحون يوم الجمعة العاشر ربيع الأخير سنة (769هـ/1367م)، بعد مرض أصابه بعد عودته من الحج، فكتب وصيته بيده يأمر فيها بحفر قبره في بقعة مخصوصة، وأوصى أن يعتق عند قبره العبيد، وأن يتصدق على الفقراء بصدقة واسعة، وأوقف الأوقاف الكثيرة، كما «كما أخرج من ماله وصايا وتبرعات وصدقات وأوقاف حوالي 30 ألف، كما وقف فرنا على الفقراء وأمر أن تصرف غلته عليهم كل يوم، كما أعتق في حياته عدة عبيد وإماء» (ابن فرحون، دت الصفحات 458-459).

3. اسهاماته في المدينة المنورة:

يعد البدر بن فرحون شخصية علمية عملية بامتياز، كان اسهامه كبير في مجتمع المدينة المنورة خلال القرن (8هـ/14م) نظير ما قدمه من أعمال تجلت في توليه منصب التدريس بالمدرسة الشهابية والمسجد النبوي، بالإضافة إلى توليه منصب القضاء، وكثرة مصنفااته في علوم شتى.

3-1: دوره في التدريس ونشر المذهب المالكي:

يعد عصر الدراسة عصر انتشار الذهبية، وكان المذهب الشافعي هو السائد في المدينة، ولكن نظام التدريس المفتوح الذي كان قائما في المسجد النبوي كان يتيح لعلماء المذاهب الثلاثة الأخرى عقد حلقات في مذاهيمهم، وعندما وفد أبو عبد الله بن فرحون (والد البدر) إلى المدينة في النصف الثاني من القرن (7هـ/13م) لم يكن فيها من يدرس الفقه المالكي فتجد لذلك (عبد الرزاق، 2003 صفحة 56)، وذلك في المدرسة الشهابية فدرس طلبة المالكية والشافعية مما أثار حفيظة القاضي السراج وأغاضه، فضيق عليه وأخرجه من المدرسة، فطلب من ابن فرحون التوجه نحو الحرم النبوي، وهناك تلقى دعم ومساندة شيخ الخدم بالحرم فكثرت أتباعه على مذهب مالك، لذا يمكن القول أن انتشار الفقه المالكي بالمدينة المنورة يعود الفضل فيه إلى أسرة ابن فرحون، وعلى رأسهم مؤسس الأسرة أبو عبد الله بن فرحون (والد البدر) الذي ساهم مساهمة فعالة في نشره رغم ما لاقاه من الطائفة الشيعية إلى غاية وفاته (722هـ/1321م): (مريقي، 2021 صفحة 927).

ليخلف ابنه البكر البدر عبد الله بن فرحون الذي ورث أباه في علمه وعمله، وذلك بمساعدة شيخه أبو عبد الله محمد بن غصن القصري الأنصاري الذي طلب منه القيام بوظائف والده بعد مماته وشجعه على ذلك بعد انكسار خاطره وحزنه على فراقه، وعن ذلك يقول البدر في كتابه: «وحملت نفسي على الاشتغال وصبرت ولأزمت، وكانت حلقتي فوق حلقة والدي في حياته، واشتغلت اشتغالا جيدا حصّلت في سنتي ما لم يحصله غيري في مدة قصيرة» (البدر، دت صفحة 79)، فحدّث ودرس وأفاد، فكان من الشيوخ العظام «وإليه انتهت الرياسة بالمدينة المنورة».

درّس البدر طلبة المالكية في المسجد النبوي لأكثر من خمسين سنة، «متصدرا للاشتغال بالحرم النبوي لأكثر من خمسين سنة، واستقر في آخر عمره بعلو الاسناد، فلم يكن في المدينة أعلى منه سنا وسندا منه» (ابن فرحون، دت صفحة 455)، كما تولى التدريس بالمدرسة الشهابية التي تعتبر أبرز مدارس المدينة المنورة، أنشأها المظفر شهاب الدين غازي (ت646هـ/1248م) أحد ملوك الدولة الأيوبية وسميت باسمه، وأوقفها على المذاهب الأربعة، كما أوقف عليها العديد من الأوقاف، من أجل التعليم وخصص لها مساكن لاستقبال الوافدين عليها، تميزت بالبناء الواسع، وتضمنت قاعتين كبرى وصغرى ومكتبة قيمة. (لأكثر تفاصيل عنها ينظر: (المديرس، 2001 الصفحات 250-251)؛ (عبد الرزاق، 2003 صفحة 66)).

إنّ التدريس بالمدرسية الشهابية يعد من الوظائف الهامة، والتعيين بها لا يتم جزافا، بل لا بد من شهادة اثنين من العلماء أو القضاة بثبوت أهلية المدرس للتدريس، مع موافقة السلطان المملوكي، وتعيين البدر فيها بعد كان بعد وفاة والده سنة (722هـ) وبمساعدة أخيه علي وهو نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم فرحون التونسي الأصل المدني المولد والمنشأ، وهو محدث وفرضي ونحوي وأدبي وشاعر، ولد سنة (698هـ/1298م)، تعلم في المدينة على يد والده وجماعة من فقهاءها، ثم رحل إلى القدس ودمشق ومصر والمغرب طلبا للعلم، تصدى لتدريس الفقه والعربية في المسجد النبوي، له عدة تصنيف منها: الجواب الهادي عن أسئلة الشيخ الهادي، ونزهة النظر ونخبة الفكر في شرح لامية العجم، توفي سنة (746هـ/1345م)، وهو والد برهان الدين صاحب كتاب الديباج. (لأكثر تفاصيل عنه ينظر ترجمته: (البدر، دت صفحة 248)؛ (الجابري، 1993 صفحة 486)

الذي سعى له لدى قاضي القضاة بمصر لإصدار أمر بتعيينه بوظيفة مدرس بالمدرسة، فلم تتم الموافقة على ذلك إلا بعد إثبات أهليته لذلك المنصب، فصدر له مرسوم من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (ت741هـ/1341م) وهو الملك ناصر الدين أبو المعالي محمد بن قلاوون أو الناصر محمد، الملقب بأبي المعالي وأبي الفتوح، ولد بالقاهرة سنة (684هـ/1285م)، من أم مغولية وهي الأميرة أشلون خاتون، وأبوه المنصور، من أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية البحرية وتاسع حكامها، تقلد الحكم وعمره 9 سنوات، خاض حروبا ضد الصليبيين والمغول، وحروبا إصلاحية في الداخل ضد الفساد، شهدت مصر في فترة حكمه الثالثة نهضة حضارية وعمرانية، توفي بالقاهرة (741هـ/1341م). (لأكثر تفاصيل ينظر ترجمته: (حسن، 1997 صفحة 11)؛ (سرور، 1959 صفحة 31)

وعن ذلك يقول البدر في كتابه نصيحة المشاور: «ثم سافر أخي علي رحمه الله إلى مصر، فلقني بها الشيخ أبا عبد الله الوادي أشي والشيخ أبا عبد الله بن الحداد، فسألتهما المساعدة في السعي لي في وظيفة التدريس بالمدرسة الشهابية وغيرها، فطالهما قاضي القضاة تقي الدين الأخنائي المالكي بإثبات الأهلية، فكتب بذلك محضرا وشهد بما فيه، فلما وقف عليه ابن الأثير كاتب السر، قال بعد، أتشهد بذلك فأنا أفعل لكما ما تحبان، وجاءني في الموسم مرسوم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمة الله عليه بالمدرسة المذكورة» (البدر، دت صفحة 80).

وهو ما أكده السخاوي في قوله: «استقر في تدريس المدرسة الشهابية بعناية أبي عبد الله الوادي آشي، أبي عبد الله بن الحداد، حين التمس منهما أخوه علي- في مصر- مساعدته عند القاضي تقي الدين الأخنائي بشهادتهما، بثبوت أهليته، حيث توقف القاضي في إجابته إلا بعد ثبوتها، فشهدا بها، وأمضاه ابن الأثير كاتب السر، وكتب له المرسوم بذلك عن الناصر محمد بن قلاوون» (السخاوي، 1979 صفحة 405).

لقد اجتاز البدر بن فرحون الاختبار بامتياز وجدارة واستحقاق، لأنه كان من أكابر الأئمة الأعلام ومصايح الظلام، عالماً بالفقه والتفسير، وفقه الحديث ومعانيه، بارعاً في العربية، وفي أصول الدين (ابن فرحون، دت الصفحات 454-455)، واتخذها منبراً - إلى جانب المسجد النبوي- لتدريس وتعزيز الفقه المالكي ونشر المذهب المالكي بالمدينة المنورة، حيث أعاد لهما النشاط والحيوية بعد خمولهما نتيجة توقف التدريس بهما بعد وفاة والده سنة (722هـ/ 1321م)، وتدخل السراج لمنع فقهاء المالكية من تدريسه «ثم توفي والدي ... فتعطلت المدارس واستبشر المراوش (الأشرار)، وزعموا أن لا تقوم بعد والدي للمالكية راية، ... فلم تكن إلا سنة واحدة حتى جاءني البشير بالتوقيع والمراسيم»، أي ابتداء من سنة (723هـ) على شأن المالكية واستمر حالهم وظهر أمرهم وقوي مذهبهم وكثرت جماعتهم وأولادهم فقرؤوا الكتب المطولة وفقهوا فيها، والفضل في ذلك يعود للبدر عبد الله بن فرحون الذي كان راضياً عن العمل العظيم الذي قدمه لمجتمع المدينة المنورة وعن ذلك يقول: «وكان لي في ظهور مذهب مالك ونشره بالمدينة المنورة عمل عظيم، أرجو به من الله الثواب الجسيم، والنعم المقيم، فإنه لم يكن له ظهور من قبل ذلك بسنين، فالحمد لله على ما أعطى ومنع، وضيق ووسع» (البدر، دت صفحة 90).

2-3: توليه منصب القضاء:

تولى قضاء المالكية بالمدينة المنورة أفراد أسرة ابن فرحون، وأول من تسلمه البدر عبد الله بن فرحون الذي ناب في قضاء المدينة سنة (747هـ/1345م) خلفاً للقاضي تقي الدين عبد الرحمن بن عبد المؤمن بن عبد الملك الهوريني القاهري الشافعي، الذي سافر إلى مصر ليقدح عينيه، واستمر في منصبه ليستقل بقضاء المالكية سنة (765هـ) إلى غاية وفاته سنة (769هـ/1367م)، فحكم بالعدل وسار في منصبه سيراً حسناً، مما أدى إلى ابتعاد الناس عن قضاة الإمامية الشيعة، الذين كانوا يأخذون المال من الأخصام ليحكموا بينهم، كما شدد على الإمامية في نكاح المتعة ونكل بفاعلها (السخاوي، 1979 صفحة 404)؛ (المدير، 2001 صفحة 230)، فنأدى بإبطال أحكامهم والإعراض عنها، فأسفرت محاولاته عن ازدياد قوة أهل السنة وعلو شأنهم (نواب، 1996 صفحة 290).

وعن ذلك يقول برهان الدين بن فرحون: «وبهيمته وسياسته أزال الله تعالى أحكام الطائفة الإمامية من المدينة، فعزلت قضاتهم، وانكسرت شوكتهم وخمدت نارهم، حيث سعى في عزل قضاتهم، فنودي في شوارع المدينة بتبديل أحكامهم، والإعراض عن حكاهم، فكان ذلك أول أسباب قوة أهل السنة وعلو أمرهم، وكم له من حسنات في تمهيد اعزاز السنة واخماد البدعة» (ابن فرحون، دت الصفحات 456-457).

لقد اتخذ البدر من منصب القضاء وسيلة للدفاع عن عقيدة أهل السنة في وجه مناوئها من الأشراف وقضاة الإمامية، فكان دوره كبير في إضعاف شأنهم ثم عزلهم كلية عن القضاء ونصرة المالكية «فكان كهفا لأهل السنة يذب ويناضل الأمراء والأشراف...، وكان عليه مدار أمور الناس بالمدينة النبوية، وناب في القضاء نحو أربعة وعشرين سنة» (ابن فرحون، دت الصفحات 455-456)، فحمل الناس كما يقول عن نفسه: «على مذهب مالك وأخمدت نار البدعة، وأظهرت نور السنة، وعزرت من تكلم في الصحابة فلم يزد الناس إلا طاعة وإقبال» (البدر، دت صفحة 92).

لم يكن عمل البدر بالأمر السهل فقد قاسى الكثير وشهد معاناة شديدة: «قاسيت في ذلك الوقت وبعده من أهل الشر والحسد والبغي لوقفت على صبر عظيم، وعلى خطب جسيم، وعذاب أليم، من سواء خلف لئيم، أعوذ بالله من أمثالهم ومن الشيطان الرجيم، أخذوني تارة بالخدع والملق، وتارة يجاهرون فأعوذ برب الفلق» (البدر، دت صفحة 90)، ونظرا لذلك امتحن ورصد في السجن في طريق الحرم، وطعن طعنة عظيمة كان الهدف منها قتله، لكن الله نجاه وعافاه (ابن فرحون، دت صفحة 455)؛ (السخاوي، 1979 صفحة 407).

3-3: انتاجه الفكري (مؤلفاته):

كان البدر بن فرحون عالما بالحديث ومعانيه والقرآن الكريم وتفسيره والعربية وأصول الدين، وله العديد من المؤلفات التي تدل سعة علمه وفهمه، وهي «في غاية الجودة والاتقان» (ابن فرحون، دت صفحة 458)، لكن للأسف لا يزال أغلبها مخطوطا حبيس أدراج الخزانات تنتظر من ينفذ الغبار عنها، وهي كالتالي ففي:

- الحديث: له كتاب "الدر المخلص من التقصي المخلص" وهو جمع لأحاديث الكتابين التقصي والمخلص، وشرحه بشرح عظيم الفائدة في أربع مجلدات، سماه: "كشف الغطا في شرح مختصر الموطأ"، بالإضافة إلى "كفاية الطلاب في شرح مختصر الجلاب" وهو شرح "لمختصر التفرغ" لابن الجلاب النيلي
- التفسير: صنف "نهاية الغاية في شرح الآية" تضمن أسئلة وأجوبة على آيات من القرآن الكريم (ابن فرحون، دت صفحة 457)، قال عنه الفيروز آبادي: أنه «صنف وأفاد وألف وأجاد» (آبادي، 1423هـ صفحة 254).

- اللغة العربية: له اسهام كبير في اللغة العربية وعلومها، قال عنه ابن أخيه صاحب الديباج: «وكان بارعا في علم العربية وتأليفه فيها شاهدة له بذلك» (ابن فرحون، دت صفحة 455)، كما أن إمام عصره الشيخ أثير الدين أبي حيان صاحب البحر المحيط في التفسير المتوفى سنة (741هـ/1341م) عالم زمانه في العربية وقف على كلامه في اعراب قصيدة البردة "بانث سعاد" في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتي جاء في مطلعها:

بَانَتْ سَعَادٌ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَثْبُولٌ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُقَدِّ مَكْبُولٌ
وَمَا سَعَادٌ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَعَنَّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ
هَيْفَاءَ مُقْبِلَةً عَجْزَاءَ مُدْبِرَةً لَا يُشْتَكِي قِصْرَ مِنْهَا وَلَا طُولُ

حيث أبدع البدر بن فرحون في إعرابه للقصيدة، وصال وجال فيها بعلمه، فاتضح لأثير الدين أبي حيان براعة فكر بن فرحون ورجاحة عقله في إعرابها، فما عساه إلا أن استعظم علمه وأثنى عليه وقدم له شهادة تثبت علو كعبه وتمكنه (مريقي، 2021 الصفحات 927-928)، حيث قال عنه: «ما ظننت أنه يوجد بالحجاز مثل هذا للرجل»، كيف لها وهو الذي قال عن نفسه: «اشتغلت في علم العربية وأنا ابن ثمان عشرة سنة» (ابن فرحون، دت صفحة 455).

أما تأليفه في علوم العربية وعلومها وخاصة في النحو فقد ألف: "التيسير" في علم البناء والتغيير في النحو، وكتاب "المسالك الجلية في القواعد العربية"، و"شفاء الفوائد في إعراب بانث سعاد"، وله أيضا: "شرح قواعد الإعراب" لابن هشام، وكتاب "العمدة في إعراب العمدة" وهو عمدة الأحكام في الحديث، حيث أعرابها اعرابا جامعا لوجوه الاعراب واللغة والاشتقاق، وسلك فيه مسلكا غريبا لم يسبق إلى مثله، وهو آخر ما ألفه، وقرئ عليه مرارا (ابن فرحون، دت صفحة 455)؛ (السخاوي، 1979 صفحة 408).

- الشعر: للبدر بن فرحون شعر كثير ضمه في كتابه نصيحة المشاور، اختلفت مواضيعه، فله قصيدة بها حوال

70 بيتا حول فضل المدينة المنورة والتشويق لسكناها والاقامة بها، والدفن في بقيعها، وتبيان فضلها، سماه: "تشويق

النفوس نص العروس"، جاء في مطلعها:

بِفَضْلِ آلِهِ مَالِكِ الْمَلِكِ غَافِرٍ
تَقَسَّمتِ الْأَوْطَانُ بَيْنَ الْمَعَاشِرِ
مَدِينَةَ خَيْرِ الرُّسُلِ مَهْبِطِ وَحْيِهِ
مُقَسِّمُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَقَاهِرِ
فَكَانَ نَصِيبي كَابِرًا بَعْدَ كَابِرِ
سَقَاهَا الْهَي مَاطِرًا بَعْدَ مَاطِرِ
وختمها بقوله:

وَهَذَا لِتَشْوِيقِ النَّفُوسِ وَسِمْتِهَا
فَسَارِعَ إِلَى نَصِّ الْعَرُوسِ وَبَادِرِ

(البدر، دت الصفحات 254-257)

وله شعر حكي فيه محنته بعد محاولة قتله الفاشلة في شهر شعبان سنة (763هـ/1361م)، فشكى كل ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم في قصيدة مؤثرة تروي الآلام والمعاناة، وهذه مقتطفات منها:

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَشْكُو مُصِيبَتِي
أَغَارُوا عَلَيَّ نَفْسِي سَجِيرًا بِمَدِيَةِ
يُرِيدُونَ أَنْ يُخْفُوا لِنُورِ أَتَمِّهِ
شَكُوتُ رَسُولِ اللَّهِ مَا قَدَ أَصَابَنِي
أَحْلُوا دَمِي يَا رَبَّ أَنْتَ حَسِيْبِهِمْ
وَشِدَّةَ أَهْوَالٍ أَطَافَتْ بِمَهْجَتِي
لِإِتْلَافِ رُوحِي بَلْ وَذَهَابِ جُثَّتِي
إِلَيْهِ فَمَا اسِطَاعُوا فَبَاؤُوا بِخَيْبَةِ
عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ بَلْ عَلَى نَشْرِ سُنَّةِ
فَعَوَضَهُمْ يَا رَبِّ كَلَّ بَلِيَّةِ

ينظر القصيدة كاملة: (البدر، دت الصفحات 251-254)

- التاريخ: يعد البدر بن فرحون أشهر من ألف عن تاريخ المدينة المنورة وتراجم علمائها، في كتاب موسوعي يسمى: "نصيحة المشاور وتغذية المجاور" (السخاوي، 1979 صفحة 404)، ويسمى أيضا: "نصيحة المشاور وتعزية المجاور"، حققه حسين محمد علي شكري يتضمن 263 صفحة، تناول فيه المؤلف جوانب شتى من الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والعمرانية بالمدينة المنورة، إلى جانب ترجمته لكثير من رجال عصره خلال النصف الأول من القرن (8هـ/14م)، وهي فترة مهمة في تاريخ المدينة المنورة، التي كانت تحت إمرة أشرافها، وقد عاصر البدر بن فرحون أحد عشر أميرا منهم، فكان قريبا من الأحداث فدون أغلب أخباره كشاهد عيان، أو نقلًا عن أشخاص عاصرهم، أو من الجيل الذي سبقه أو قبله، إلى جانب استعانته ببعض المؤلفات المعروفة، وفق أسلوب واضح وسهل (البصيري، 2021 صفحة 217)، كما ختم كتابه بعدة قصائد، بالإضافة إلى الترجمة لعائلته ولنفسه، وعن ذلك يقول السخاوي في كتابه: «وترجمته مفرقة في تاريخه فتطالع وتجمع» (السخاوي، 1979 صفحة 405).

4. خاتمة:

ومن خلال هذه الدراسة التي تناولت التعريف بالبدر عبد الله بن فرحون واستعرضت الاسهامات العلمية والعملية التي قام بها في مجتمع المدينة المنورة خلال القرن (8هـ/14م) توصلنا إلى النتائج التالية:
ينحدر البدر عبه الله بن فرحون من أسرة وصفتها كتب التراجم ببيت رئاسة وقضاء وعلم، يعود منشؤها إلى بلاد الغرب الاسلامي (الأندلس وتونس)، أثرت الاستقرار بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وخدمة العلم فيها والاشتغال بالعبادة في جوهرها الروحي الطيب.

يعد البدر عبد الله بن فرحون واحدا من أفرادها، ومن أبرز العلماء المغاربة المالكيين الذين ساهموا بنصيب وافر في الحركة العلمية بالمدينة المنورة خلال القرن (8هـ/14م)، حيث سعى إلى خدمة المذهب المالكي بكل طاقاته، فدرس وحدث

وأفتى وأثرى الرصيد الفكري، فنشر العقيدة الصحيحة وتصدى للشيعة وكسر شوكتهم، بعد محاولتهم نشر البدع في مجتمع المدينة، محاولا التنبيه إلى هذه البدع والتعريف بها لتوقيف خطرها ودرء مفسدها. تولى القضاء لأكثر من 24 سنة وساعده كثيرا على تطبيق المذهب المالكي، وبالتالي الانتصار للاتجاه السني، وبهيمته وسياسته أزال أحكام الطائفة الإمامية فعزلت قضاتهم وانكسرت شوكتهم وخدمت ناهم، فارتفع شأن أهل السنة وعلا أمرهم بالمدينة المنورة.

إنّ هذا الانجاز العظيم والدور الكبير الذي قام به البدر يعكس المستوى العلمي لهذا الشيخ الفاضل، ويتجلى ذلك أكثر في الآثار التي خلفها سواء مصنفاًته في شتى العلوم، أو تلامذته الذين كانوا من بعده نبراساً للعلم والورع والتقوى، فأفادوا كما استفادوا سائرين على درب شيخهم، مقتفيين خطاه على ضوء الشريعة الإسلامية، فأحيوا الفقه والمذهب المالكي بعد خموله في المدينة المنورة، ولعل أبرزهم ابن أخيه صاحب الديباج.

لكن يبقى هذا الموضوع غير مكتمل الجوانب، وينتظر من يزج الغبار عنه وعن مصنفاًته، وعن باقي أفراد هذه الأسرة (أسرة آل فرحون) الذين توارثوا العلم والمناصب في المدينة المنورة طيلة ثلاثة قرون (7-9هـ/13-15م)، بالإضافة إلى البحث والتقصي عن مصنفاًتهم، لا يزال العديد منها لم يحقق أو يعيد إحياءها من جديد، وعلى ضوء هذا يمكننا وضع بعض التوصيات التي من شأنها خدمة هكذا مواضيع، وأهمها: ضرورة وضع موسوعة تراجم تضم أفراد هذه الأسرة، تتضمن دراسة كاملة ومستفيضة لمؤلفاتهم ومصنفاًتهم المحققة وغير المحققة التي لا زالت لحد الساعة حبيسة المكتبات.

6. قائمة المراجع:

- ابو العباس الغبريني. (1979). *عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائى السابعة بجاية* (الإصدار 2). (عادل نوميض، المحرر) بيروت: منشورات دار الأفق الجديدة.
- أبو عبد الله محمد بن عبيد الله ابن بطوطة. (1987). *رحلة ابن بطوطة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار* (الإصدار 1، المجلد 1). (محمد عبد المنعم العريان، ومصطفى القصاص، المحررون) بيروت: دار احياء العلوم.
- أبو محمد عبد الله بن محمد ابن فرحون البدر. (دت). *تاريخ المدينة المنورة المسمى: نصيحة المشاور وتعزية المجاور*. (حسين محمد علي شكري، المحرر) بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- أسامة حسن. (1997). *الناصر محمد بن قلاوون* (الإصدار 1). الهرم: دار الأمل.
- الفيروز آبادي. (1423هـ). *المغانم المطابة في معالم طابة* (الإصدار 1). المدينة المنورة: مركز بحوث ودؤاسات.
- المري محمد حمد سالم بوشهاب. (2004). *منهج ابن فرحون في القضاء. رسالة ماجستير*. الأردن، كلية الدراسات العليا، الأردن: الجامعة الأردنية.
- المصطفى مرتاجي. (دت). *برهان الدين بن فرحون المالكي تراجم مختصرة لأشهر علماء السادة المالكية*. دون دار نشر: دون مكان نشر.
- بدر عبد الباسط عبد الرزاق. (جويلية- اوت، 2003). *الحياة الثقافية في المدينة المنورة في العصر المملوكي*. مجلة مركز بحوث ودؤاسات (5).
- بدرية بنت عبد العزيز البصيري. (جانفي، 2021). *نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون* (ت769هـ/1368) مصدرا للحياة الاقتصادية في المدينة النبوية خلال العصر المملوكي الأول (646-784هـ/1250-1382م). مجلة وقائع تاريخية، 7 (34)، الصفحات 211-251.
- برهان الدين ابن فرحون. (1423هـ). *إرشاد السالك إلى أفعال المناسك* (المجلد 1). (محمد بن الهادي أبو الأجدان، المحرر) الرياض: مكتبة العبيكان.
- برهان الدين ابن فرحون. (دت). *الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب* (المجلد 1). (محمد الأحمدى أبو النور، المحرر) القاهرة: دار التراث للطبع والنشر.
- خالد محسن حسان الجابري. (1993). *الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي* (648-923هـ/1250-1517م). رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الاسلامية، 2. السعودية، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى.
- شمس الدين السخاوي. (1979). *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*. (أسعد طرابزونى الحسيني، المحرر) دون مكان: دون دار نشر.
- عامر مريقي. (جانفي، 2021). *دور علماء المغرب الاسلامي في بلاد الحجاز ق 6-9هـ/12-15م*. مجلة الاحياء، 21 (28)، الصفحات 921-934.
- عبد الرحمن مديرس المديرس. (2001). *المدينة المنورة في العصر المملوكي* (648-963هـ/1250-1517م) دراسة تاريخية (الإصدار 1). الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية.
- عواطف محمد يوسف نواب. (1996). *الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والتاسع الهجريين دراسة تحليلية مقارنة*. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.
- محمد بن محمد ابن مخلوف. (2003). *شجرة النور الزكية في طبقات المالكية* (الإصدار 1، المجلد 1). (عبد المجيد خيالي، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

محمد جمال الدين سرور. (1959). دولة بني قلاوون في مصر الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص. مصر: دار الفكر العربي.

محمد عبد المنعم الحميري. (1984). الروض المعطار في خبر الأقطار (الإصدار 2). (احسان عباس، المحرر) بيروت: مكتبة لبنان. مصطفى حاجي خليفة. (2010). سلم الوصول إلى طبقات الفحول (المجلد 1). استنبول: منظمة المؤتمر الاسلامي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامي.

نجية أعراب. (2000). القاضي برهان الدين بن فرحون وجهوده في الفقه المالكي. المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.